النظام السياسي في العصر الأموي[1]

للدكتور: إبراهيم حركات

الخلافة والبيعة:

تجاذبتْ الجماعة الإسلامية في قضية الخلافة والإمامة اتجاهات مُتعدِّدة خلال قرون كثيرة منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتبقى الاتجاهات الرئيسية محصورة في ثلاثة يضاف إليها رابع أقل انتشاراً.

١ ـ الاتجاه القُرَشي الذي يحبِّذه عامَّة أهلِ السنَّة، وهو يقتضي حصرَ اختيارِ الخليفة من قريش، ارتكازاً على بعض الأحاديث النبويَّة، و على ما تَقرَّر في سَقِيفة بني سَاعدة، وفي هذا الإطار تجاذب الخلافةَ كلٌّ من الزبيريين والأمويين.

٢ ـ الاتجاه الشيعي والقائم على اختيار الإمام بنص نبويٍّ.

٣ ـ الاتجاه الديمقراطي القائم على اختيار الأمَّة لإمامها ويرفض الاتجاهين السابقين؛ لأنه ينطلق هو أيضاً من أحاديث نبويَّة بعضها ينص على طاعة ولي الأمر ولو كان عبداً حبشياً.

٤ ـ الاتجاه الفوضوي الذي يختارُ الاستغناء عن الإمام إذا استقامتْ أمورُ الناس بدونه، وهو رأي فريق النجدات من الخوارج.

إنَّ كل هذه الاتجاهات حددتها على الخصوص، ظروفٌ تاريخية وجغرافيَّة، فالاتجاه القُرَشي أملته هشاشةُ الصفِّ العربي وضرورة اعتماد الإسلام في أجياله الأولى على حكم عربي لكن ديمقراطي. وحيث إن قريشاً ظلَّت رمزاً لمنشأ الإسلام وحماية أقدس مَعَابده، مع ما كان لها دائماً من مكانة لدى العرب عموماً؛ فإن اختيار الخليفة منها كان أمراً ضرورياً وكما حدث فعلاً، بالرغم من نزاع الزبيريين والأمويين، وخروج الخلافة من قريش يعني انهيار العرب جملةً وتعرض الإسلام لتطورات فكريَّة عقيديَّة وحضاريَّة ربما تسلبه كل أصالته وأسس ثقافته.

والاتجاه الشيعي مالت إليه عِدَّة شعوب وجماعات عاشت في ظل ملكيات قديمة كما عند الشعوب الإيرانيَّة واليمن، وهو على أي حال حرَّرَ غيرَ العرب من عقدة العُجْمة وسمح لهم

---

(١) مجلة دار الحديث الحسينية، (العدد السادس: ١٤٠٨هـ).

بتحمُّل مسؤوليات رئيسية إلى جانب الخلفاء العرب قبل أن يصبح هؤلاء الخلفاء لعبة في أيديهم؛ لأنَّ الأعاجم بادروا بأعداد كبيرة إلى اعتناق الفكر الشيعي في بدايته. والاتجاه الديمقراطي الذي مَثَّله الخوارج فيما يَرجع إلى الاختيار الجماعي الحرِّ للإمام، استقطبَ في أغلب صفوفه فئات الرجال كبني تميم وقبائل عمان، وعدد من قبائل اليمن وزناتة المغرب الكبير.

أما رأي النجدات فلم يُعَمَّر طويلاً فهو لم يكن رأيهم كلهم، كما أنَّ النجدات تَخَلَّوا مع الأزارقة بعد صراعٍ طويل ضدَّ الأمويين، عن مكانهم للصفريَّة والإباضيَّة، والحق أن النجدات هم طليعة العمل الصفري بالإضافة إلى حركة ابن مسرح.

والمتساهلون من السُّنِّيين يُفَضِّلون أن لا يمسوا بنقد أو تجريح خلفاءَ بني أميَّة، والأقرب منهم إلى الإنصاف فَرَّقوا بين مُقتضيات الساسة في فترة من حكمهم، وما تطوَّرت إليه الخلافة في فترة لاحقة من الانحراف، وخير من يُمثَّل هذا الاتجاه، ابن خلدون في مقدِّمته، وهو يرى أنَّ النزاع بين علي ومُعَاوية مَرَدُّه طريقة كلٍّ منهما في الاجتهاد، وتوخِّي الحق (ولم يكونوا في مُحاربتهم لغرضٍ دنيوي أو لإيثارِ باطل، أو لاستشعار حقدٍ كما قد يتوهَّمه مُتوهِّم وينزع إليه مُلحد).

وبعد أن نوَّه بمزايا عمر بن عبد العزيز أكَّد أن خلفاءه (استعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيويَّة ومَقَاصدهم، ونَسُوا ما كان عليه سَلَفُهم من تحرِّي القصد فيها واعتماد الحق في مَذَاهبها، فكان ذلك مما دَعَا الناس إلى أن نَعَوا عليهم أفعالَهم وأدالوا بالدعوة العباسية منهم [٢].

والدعوة إلى البيعة في أول نشأة الدولة انطلقت من استعمال القوَّة ضد الأطراف التي ظَلَّت مُوالية لعلي بعد قضية التحكيم، وهكذا أطلق مُعاوية جيوش الشام على هذه الأطراف من سنة ٣٩ سواء بالعراق أو الحجاز أو غيرهما [٣]، ثم سَهَّلت بيعةُ الحَسَن استقرارَ الأمور للبيت الأموي أو بالأصح لمُعاوية، ويظهر أنَّ قضية الخلافة الوراثيَّة راودت مُعَاوية منذ أوائل خلافته، والأرجح

---

(٢) مقدمة ابن خلدون ص١٧٨-١٧٩.

(٣) الطبري ٦/ ٧٧،٨٣.

أنَّه كان يريد أن يرشح زياد بن أبيه، لكن وفاة زياد جعلته يهيئ الرأي العام، لتولية يزيد ابنه بعده، ولزم لذلك استقدام الوفود من الأمصار لإقناعها [٤].

وقليل من الخلفاء تمت بيعتهم بكيفية شاملة مُطلقة ودون مُعارضة أو تلكؤ أو تملص، فابن الزبير والحسين لم يؤديا بَيْعتهما لا لمعاوية ولا ليزيد، واستمرَّ ابن الزبير يُناهض الأمويين حتى وقت متأخر من عهد عبد الملك بن مروان، أي حتى مصرع ابن الزبير ويدخل في فئة المعارضين، الخوارج وعدد من الشيعة؛ لأن بعضهم يُكره على البيعة وبعضهم يَلجأ إلى التقيَّة، والذين رفضوا البيعة الأمويَّة حتى نهاية أمر ابن الزبير كثيرون، وفي العلماء من أنكروا علانية بيعة يزيد بن عبد الملك، كالحسن البصري وعامر بن شراحيل الشيعي ومحمد بن سيرين، وهؤلاء استدعاهم والي العراق عمر بن هبيرة، ودعاهم إلى البيعة، فأما البصري فوعظ العامل حتى يتخلى عن الدعوة ليزيد، وأما الآخران فلجآ إلى التقية [٥]، وسعيد بن المسيب امتنع من البيعة بولاية العهد للوليد وسليمان، فضربه عامل المدينة هشام المخزومي وأمر بتطويقه وحبسه [٦]، وكان قد رفض بيعة ابن الزبير فضربه واليه على المدينة، جابر الزهري، وجرت العادة أن يكتب الخليفة إلى الأمصار ببيعته أو ببيعة من يوليه عهده فيتلقى البيعة الجماعية كتابة، وقد يتلقاها من أفراد لهم وجاهتهم، وقد جاء في نصِّ بيعة عبد الله بن عمر لعبد الملك [٧]:

(لعبد الملك بن مروان، من عبد الله بن عمر. سلام عليك، فإني أقررت لك بالسمع والطاعة، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيعة نافع مولاي على مثل ما بايعتك عليه).

واعترفَ محمدُ بن الحنفية ببيعة عبد الملك بعد مَقتل الزبير، وطلب من الخليفة ميثاق توقير حتى لا يناله أذى من ولاته، وكان جواب عبد الملك التزاماً مُباشراً بمراعاة مكانة المكاتب مع رقة

---

(٤) العِقْد الفريد، لابن عبد ربه ٥/ ١٢١.

(٥) مُروج الذهب، للمسعودي ٣/ ٢١٢.

(٦) ابن خلدون ٣/ ١٢٧-٢٢١، ابن تغري ١/ ١٨٠، الذهبي ١/ ٩٩.

(٧) العقد الفريد ٥/ ١٣٩.

مُتناهية في الرد [٨]، غير أن دعاه إلى مُبايعة الحجَّاج بوصفه والياً على الحجاز وكانت بيعة الأقاليم تتمُّ على يد الولاة؛ لأن الخلفاء نَادراً ما كانوا يقبلون البيعة المكتوبة وحدها.

وعندما استولى عبد الله بن الزبير على الحجاز وبايعته الأقطار المجاورة امتحنَ عدداً من العلماء المناهضين ومنهم سعيد ببن المسيب وعبد الله بن المسيب وعبد الله بن عباس الذي ناله بالشتم، ومحمد بن الحنفية الذي أدخله سجن عارم[٩].

واختلفت صيغة البيعة والدعوة للبيعة بحسب اتجاهات المعنيين بأمرها، فبيعة الخوارج على أساس الالتزام بالكتاب ومحاربة (المشركين والمشركات) والأخذ بيد الضعفاء والتزام ابن الزبير بسيرة عثمان والشريعة المحمدية كما فعلَ الشيعةُ أيضاً من حيث الأخذ بالكتاب والسنة لكن مع الطلب بدماء أهل البيت[١٠].

كذلك اختلفت صيغة الدعوة إلى البيعة عند بني أمية، فخطب التولية وهي أهم وثائق أساسية لتوضيح نوايا واتجاهات كل خليفة، تَرتبط مَضَامينها بالظروف والسلوك الخاص بالخليفة وهكذا فخطبة يزيد الأول، وهي قصيرة نصاً ومَضموناً تَكِلُ أمرَ مُعاوية إلى عفو الله أو عقابه، وتربط قرارات خليفية بإرادة الله، ثم تنتهي بجملة: اذكروا الله واستغفروا [١١].

والوليد بن عبد الملك ينوه بمزايا سلفه ثم يأمر الناس بالطاعة ولزوم الجماعة وينهي خطابه بقوله: (أيها الناس، من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه...).

---

(٨) م س ص ١٤٠

(٩) م س ص ١٥١.العقد الفريد ٥/ ١١٦، مروج الذهب ٣/ ٧٥.

(١٠) الطبري ٨/ ٥٩، الجاحظ ٢/ ٢٣٣، ابن خلدون ٣/ ١٢٩.

(١١) مسعودي ٣/ ١٩٤-١٩٥.

لكن الجاحظ يعزو إلى الوليد قوله في خطبة بعد توليته: (... إذا حدثتكم فكذبتكم فلا طاعة لي عليكم، وإذا وعدتكم فأخلفتكم فلا طاعة لي عليكم، وإذا أغزيتكم فجمرتكم ـ أي: منعتكم عن ذويكم ـ فلا طاعة لي عليكم [١٢].

وأولى خطب عمر بمسحة من الزهد، وهناك خطبة أخرى حدَّد فيها خُطَّته: (أيها الناس إنَّه لا كتابَ بعدَ القرآن ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ألا وإني لستُ بقاضٍ ولكني مُنَفِّذ، ألا وإني لستُ بمُبتدع، ولكني مُتَّبع، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاصٍ، ولكن الإمام الظالم هو العاصي، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[١٣].

وظهر عمر في هذه الخطبة محترماً مُدافعاً عن السلطة القضائيَّة واستقلالها، سلفياً مُلتزماً باحترام القرآنِ والسنة، مُناهضاً للظلم قابلاً لحقِّ الرفض من الآخرين إذا جَاز. واتَّسمت خطبة سليمان قبله هي أيضاً بمسحة من الزهد (ولو أنَّ سليمان لم يكن زاهداً في حياته الخاصة) ثم دعا الأمة إلى الأخذ بكتاب الله ولم يلتزم من جهته بشيء.

أما مُعاوية بن يزيد فقد خرج بفكرةٍ ثَورية لم تَعْتَدْها الأنظمةُ الوراثيَّة وذلك بإعلانه رفض الخلافة بعد أن رُشِّح لها ومن على منبر مسجد دمشق، قبل بناء مَسجد الوليد أعلن أنَّه لو وجد في الناس مثل عمر بن الخطاب لرَشَّحه ولو وجد ستَّة من الأكْفَاء لتركَ الأمرَ لتشاورهم واختيارهم كما فعل عمر: (فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتُم).

وحسب نصٍّ ساقَه ابن تغري فإنَّ معاوية بن يزيد صَرَّح بأنَّ جده مُعاوية رضي الله عنه اغتصبَ الخلافةَ من عَليٍّ رضي الله عنه، وأنَّ والده كان غيرَ أهلٍ للخلافة، وأنَّه ركب هواه وأخلفه الأمر [١٤].

---

(١٢) الطبري ٧/ ٣٤، مروج الذهب ٣/ ٨٢، ابن تغري ١/ ١٦٤.

(١٣) ابن الأثير ٤/ ٧٩، طبري ٧/ ١٩.

(١٤) طبري ٧: ٣٤، مسعودي، مروج الذهب ٣: ٨٢ ، ابن تغري ١: ١٦٤ .

وإذا كان مُعاوية الثاني قد أَثارَ هزَّة داخلَ البلاط الأموي وبين أنصار بني أميَّة فإنَّ يَزيد بنَ الوليدِ كان الوحيد الذي تولى مُبادرة الإطاحة بِسَلَفِه، وهو أيضاً الوحيد بين خُلفاء بني أميَّة، الذي استوفَتْ خُطبته كل ما كان الرأي العام بحاجة إلى معرفته من سياسة الخليفة عما يشغل باله، فمن جهة برز الانقلاب ضدَّ سلفه وتصفيته بما بلغ إليه الخليفة السابق من استهتار بالقيم الدينيَّة، وأن ثورته كان غضباً لله ولدينه وللدعوة لكتاب الله وسُنَّته ثم التزمَ بعد هذا بأن لا يَصْرف جبايةَ بلدٍ إلا في مَصَالحه، فإن فَضَلَ عنه شيء نقله إلى من يَليه، وأن لا يمنع الجيوش الغازية والغائبة من التردُّد على أُسَرها، وأن يَلتزم بأداء الأعطيات السنويَّة والرواتب الشهرية في إبانها، وأن يسهل سُبل المعاش حتى يكون المسلمون أقصاهم كأدناهم، فإن لم يوفِ بالتزاماته حُقَّ للناس خلعه، ثم هو يضع نفسه رهن إشارة مَن يختارون غيره.

وجابه عبد الملك بن مروان من الأطراف المُناهضة ما لم يجابه غيره من بني أمية ولربما كان مع مُعاوية أكثر الخلفاء لها في تقريب الناس بالمال والعطاء، ووزع الحجاج عامل عبد الملك على العراق، في حرب ابن الأشعث مائة وخمسين مليون درهم على الجيش، ودعا عبد الملك أحد ولاة ابن الزبير إلى بيعته مُقابل استغلاله المطلق لجباية خراسان مدة سبع سنين[١٥].

البلاط الخليفي:

واختصَّ القصرُ الخليفي بالإشراف على ما يُسمى بدور الطراز، وهي مَصَانع تختصُّ بصنع ملابس الخلفاء والثياب التشريفيَّة التي تُقدَّم للولاة عند تَعيينهم وكذا بغيرهم من الشخصيات التي يخلع عليها الخلفاء وتصنع من الحرير أو الديباج، أو الأبريسيم، وتسَدَّى بخيوط الذهب وتحمل أسماء الخلفاء وعبارات تيمن[١٦].

---

(١٥) مقدمة ابن خلدون ص٢٠٠.

(١٦) وَفَيَات ابن خَلِّكان ١/ ٢٨٨.

واتخذ بعضُ الخلفاء مُستشارين يتميزون بحصافة الرأي، وربما بمعارفهم في شؤون الدين أيضاً، وكان الأحنفُ بنَ قيس زعيمَ تميم مُستشاراً لمعاوية كما لازم مدة عبيد الله بن زياد [١٧].

وكان روح بن زنباع وهو فقيه وأحد الذين تولوا شؤون فلسطين مُستشاراً لعبد الملك[١٨]، واعتمد عمرُ بن عبد العزيز على جملة من كبارِ الفقهاء والمحدثين منهم رجاء بن حيوة وسالم بن عبد الله ومحمد بن كعب.

وتتمُّ الاستقبالاتُ جماعياً بحضور الوالي المعني الذي يَنتمي الوفد إلى إقليمه ويميز كبار الشخصيات بعطاءات وهبات، تقتطع عادةً من بيت المال ففي دفعة واحدة تَسلَّم الحسن بن علي من مُعاوية مائة ألف دينار، وأخذ غيره ستين ألفاً وخصص يزيد بن معاوية نشوة استقباله لعبد الله بن جعفر أربعة ملايين درهم وراجع عمر بن عبد العزيز سياسة أسلافه فأوقف التبذير واعتنى بالفقراء ولم يبالِ بأمداح الشعراء، حتى قال جرير: خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، وإني عنه لراض.

واستقبل مُعاوية وفودَ العرب من كل الجهات والحيثيات، وكان بين زواره سيدات عربيات سبقن إلى المعارضة في صفِّ خُصومه أو صمدن في مَواقفهنَّ، وبينهن من يستقدمن إلى البلاط قسراً ليسمع إليهنَّ الخليفة بمحضر جلسائه، وتعزو الروايات إليهنَّ من الجرأة في القول والفكر ما يُثيرُ الدهشة، وفيهن خَارجِيَّات وشيعيات وغيرهنَّ. ولمعاوية من الصبر والحلم في استماع ما يَكره أكثر مما لهؤلاء السيدات من الجرأة والشجاعة في القول [١٩].

ومنع عبد الملك أن يراجع في القول، وهدَّد بقتل من جاحده لكن خلفاء آخرين من بني أمية كانوا يواجهون بجرأة بعض مخاطبيهم، ومحاكمة سليمان لموسى من نصير أبرز مثال كما ورد عند ابن قتيبة في الإمامة والسياسة وعند غيره، واستقبل عمر بن عبد العزيز وفداً، فتقدم للكلام باسمه

---

(١٧) الإصابة لابن حجر ١/ ٥٢٤.

(١٨) العِقْدُ الفريد ١/ ٢٩١-٣٠٤.

(١٩) م س ٢-١٣.

شاب حَدَث، فاستصغره فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان الأمرُ كله بالسن لكان في المسلمين من هو أسنُّ منك! ثم عبَّر بكلام فيه لَباقة وفيه نصحٌ للخليفة بأن لا يغترَّ بشكر الناس وثنائهم[٢٠]. بل إنَّ أعرابياً حذَّر سليمان من سوء الحاشية وما يتحمله من مَسؤولية أخطائهم فضلاً عن أخطائه[٢١].

وكان يجري من المناظرات بمحضر مُعاوية وبمشاركته أحياناً، ما يُؤذي سمعة بني أمية وكثيراً ما يكون المتناظرون من الجانب الأموي والجانب المعارض كالعلويين والهاشميين والزبيريين[٢٢].

وإذا كان أغلبُ خلفاءِ بني أمية حريصون على الظهور في بلاطهم بمظهر الوقار والاتزان فإن كلاً من يزيد بن معاوية، ويزيد بن عبد الملك ونجله الوليد، كان لا يتستر من العبث والمجون، بل إنَّ الوليد أفحش في ذلك حتى كان فيه حتفُه، وبعض سيدات القصر كان لهنَّ مقامٍ سامٍ لدى أزواجهنَّ الخلفاء كما هو الشأن في أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر زوجة عبد الملك[٢٣]. والقصر الخليفي مع هذا يكتظ بالخصيان والسيدات والجواري، مَسيحيات وغيرهم من مختلف المِلَل والأجناس، وهكذا كان الشأن في البلاط البيزنطي أيضاً.

وجاء في (تاريخ البشرية)، وصف لوضعيَّة الخليفة الأموي الذي يقول كتابه: (إنَّ الخليفة الأموي، هو من بعض الوجوه أميرٌ بدوي يُسَيِّر حسبَ التقاليد العربية جماعاتٍ من القبائل المسلمة والتي تَسكنُ الخيامَ ولا تملكُ أرضاً، وهو يَسعى ما أمكنه في تلافي خطر تفتت الطبقات والذي تنشأ عنه الأحقاد، وكعاهل فهو يديرُ مناطقَ مفتوحة سكانها ليسوا عرباً ولا مسلمين ويوطِّد أعرافَ الحكم القديمة ويحتفظ بالموظفين القُدَامى).

---

(٢٠) السابق ٣/ ١٠٠.

(٢١)السابق ٤/ ٧٨-١٠٧ مروج الذهب ٣٠،١٢،٣.

(٢٢) مروج الذهب ص١٢٥.

(٢٣) linesco histoire de ihumanite 3/138

وهذه الأحكام العاجلة مَردُّها إلى صعوبة استقاء الحقيقة التاريخيَّة والإسلاميَّة وما تتطلبه من صبرٍ طويلٍ للرجوع إليها في مَظانَّ مختلفة: كتب الآداب والجغرافيا القديمة، فضلاً عن كتب التاريخ والمصادر الميدانية نفسها، ومُقابلة بعض الروايات بما تقدمه المؤلفات غير العربية فالعرب الذين حكمهم الأمويون لم يكونوا كلهم سكان خيام، وإلا ماذا يقال عن البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ومدن الأندلس وعدد كبير من المراكز الأخرى التي بناها الأمويون أو بُنيت في عهدهم وأصبحت أمصاراً عظيمة، فضلاً عن المراكز الحضريَّة الموجودة بالبلاد المفتوحة والتي استوطنها العرب إلى جانب نزاة الحياة الحضرية العتيقة بالحجاز واليمن.

ولاية العهد:

لم تكن ولايةُ العهد فكرة قط لدى العرب، وبالتالي عند بني أمية، فالملكية نظام قد نما لدى الشعوب السامية، والعرب من أقدم هذه الشعوب، والأصحُّ أنَّ النظام الملكي الروماني أو البيزنطي استقى من الشعوب السامية والتحصينات البيزنطية أخذت الكثير عن المباني السامية، وكان في اليمن نظام قديم سبق البيزنطيين زمناً طويلاً، وقبل أن تثبت أقدام الدولة الأموية في دمشق، حاول الحسنُ بن علي رضي الله عنهما أن يحوِّل الخلافة إليه، ثم دعا الحسينَ رضي الله عنه إلى نفسه وكلاهما كوارث لعلي رضي الله عنه، ثم راجتْ فكرةُ الوصاية لدى الشيعة، وما هي إلا نظام لولاية العهد مهما اختلف شكلاً فهل فكَّر الشيعة في أن يأخذوا هم أو بنو أمية هذا النظام عن غيرهم؟.

وكانت وجهة نظرِ مُعاوية وأنصاره في إنشاء نظام وراثي وتعيين وليٍّ للعهد في حياة سلفه هي الرغبة في المحافظة على الاستقرار وتجنيب الأمَّة ما عانته من تمزُّقٍ وفرقة، وإذا كان النظام الوراثي الأموي لم يحسم مشكلات الحكم الإسلامي فقد كان بالرغم من سوء الاختيار أحياناً والميل مع العاطفة أفضل من مُعَاصرة البيزنطي الذي يُذكِّرنا بما صار عليه منصب الخلافة من بهدلة أيام تدهور الحكم العباسيِّ.

وقد أخذ مُعاوية رضي الله عنه يُروِّج لاستخلاف نَجْله يزيد منذ سنة ٥٣، وكانت نيَّتُه أن يعهدَ لزياد، فلما توفي زياد في هذه السنة أخذ يهيئ الرأي العام لتقبل بيعة يزيد، وواصل سعيه في

ذلك حوالي سبع سنين (يروض الناس ويشاور ويعطي الأقارب والأباعد) [٢٤]. وكان له مجلس ضمَّ عدداً من زعماء العرب والبيت الأموي، فكلهم حبَّذ تولية يزيد، أما الأحنف بن قيس فترك الأمرَ للخليفةِ نفسِه، وقال له: (...إن كنتَ تعلمه لله رضاً، ولهذه الأمَّة، فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت تعلمُ منه غيرَ ذلك، فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الأخرى).

أما زعماء المدينة فرفضوا بيعة يَزيد، حتى ورد معاوية يخطب السكان بحضور الحسين وعبد العزيز بن أبي بكر وابن عمر، وعبد الله بن الزبير وعلى رأس كل من الأربعة جنديان مُسلَّحان فيقول: (...هؤلاء الرهط سيادة المسلمين وخيارهم... وإني دعوتهم سامعين مُطيعين فبايعوا وسلَّموا وأطاعوا...) وترك هؤلاء الزعماء مَشْدوهين فجعلهم من المبايعين ولم يقلْ أحدهم شيئاً. وكان مروان بن الحكم نفسه من أشدِّ الأمراء غضباً على تولية يزيد العهد حتى معاوية أن تكون له ولاية العهد بعد يزيد، ولم يفِ بذلك حتى ساعدته الظروف تلقائياً بعد موت يزيد وتخلي نجله معاوية عن الخلافة.

والذي حرَّك الثورة ضدَّ بني أمية، وأذكى حماس الأحزاب للمقاومة المسلَّحة كان سوء اختيار ولي العهد أكثر مما كان من أجل المبدأ نفسه، والدليل على ذلك أنَّ المعارضة خَفَّت حدَّتُها كثيراً ضدَّ عمر بن عبد العزيز مع أنَّه من خلفاء بني أمية أما يزيد فقد أرغمَ الناسَ على بيعته قهراً في حياته، وعندما قدم قرشيان للبيعة في قباء بعد وقعة الحرة، قال لهما القائد مسلم بن عقبة بايعا فأجابا: نبايع على كتاب الله وسنة نبيه، فرفضَ هذه الصيغة وضرب عُنقهما [٢٥].

وأوصى يزيد بالبيعة لابنه مُعاوية، لكن يزيد توفي بعد ثلاثة أشهر، أما مُعاوية فلم يمارس الحكم إلا أربعين يوماً ثم تخلى عنه، وماتَ في ظروف غامضة بعد أيام، وفي خطبة التنازل على الخلافة أوصى باللجوء إلى الشورى حتى يتولاها من ترضى عنه الأمَّة [٢٦].ولم يظهرْ من بيت

---

(٢٤) والفكرة المشار إليها رددها مؤلفو هذا المرجع الدولي.

(٢٥) العقد الفريد ٥/ ١١٠.

(٢٦) انظر عن تولية يزيد: الطبري٧/ ١١، ابن عبد ربه ٥/ ١١٠، مسعودي ٣/ ٣٦، ابن حجر ٣/ ١٦٩.

مُعاوية من يُرشِّح نفسَه للخلافة، فتحولَّت إلى بني مَروان، ابتدءاً من جدهم مروان بن الحكم الذي حصل على الخلافة بفضل سيوف قحطانية الشام.

وفي سنة ٦٥، بادرَ مروان بعد شهور من بيعته إلى عقد البيعة لنجليه عبد الملك ثم عبد العزيز من بعده، وكانت تلك أول مرَّة يتم فيها ترشيح أكثر من أمير واحد لولاية العهد، غير أنَّ عبد الملك أسقط من ولاية العهد بعد توليته أخاه بعد العزيز، ولما توفي هذا سنة ٨٥ عقد عبد الملك لنجليه: الوليد وسليمان، وتوليا الخلافة بالتعاقب.

وأوصى سليمان قبيل موته سنة ٩٦ بالخلافة لعمر بن عبد العزيز ثم ليزيد بن عبد الملك ولم يكن راغباً في ترشيح يزيد، لكنه قال عن بني أمية: إني والله لأعلم أنها تكون فتنة ولا يتركونه (أي عمر) يلي عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده، وجاء في عهد سليمان لعمر: (إني قد وليتك الخلافة من بعدي، ومن بعدك يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا، فيطمع فيكم) [٢٧].

أما يَزيد بن عبد الملك فقد رَشَّح بالتعاقب لولاية العهد أخاه هشاماً، ونجله الوليد وكان ذلك سنة ١٠٢ هـ ولم يكن الوليد قد بلغ [٢٨].

وحيث إن الوليد بن يزيد لها عن شؤون الخلافة بالصيد والشرب، وأنَّه تعسَّف على بني هشام، فضلاً عما جرَّه سخط أنصار خالد القسري بعد مقتله، وفيهم يمانية غيرهم فإن هؤلاء الغاضبين ألحُّوا على يزيد بن عبد الملك حتى بايعوه سراً، وقام على إثر ذلك بالإطاحة بالوليد [٢٩]، وتكاد تكون هذه المرة الوحيدة التي كان تدبير البيعة يأخذ شكلاً جماعياً، أي: صادراً عن جماعة كبيرة، وليس من داخل البلاد.

---

(٢٧) طبري ٧-١٧ مسعودي٣،٨٢. ابن تغري، نجوم ١/ ١٦٤.

(٢٨) تاريخ ابن خلدون ٣/ ١٦١.

(٢٩) الكامل لابن الأثير ٤/ ١٧٧.

وأخيراً فإنَّ مروان الجعدي آخر خلفاء بني أمية، استولى على الحكم بالقوة، و بفضل الجند الأموي بالجزيرة والتي كان عليها والياً.

وبقطع النظر عن كَفاءة هذا الخليفة أو ذاك، فإنَّ ولاية العهد لم تخضعْ قط لمشاورة واسعة النطاق فيما عدا تَرشيح يزيد بن مُعاوية رضي الله عنه، فكانت الترشيحات تتمُّ في أضيق نطاق، مع بعض الأمراء لكن ثنائيَّة الترشيح ضَمنت بالفعل، كثيراً من الاستقرار بالنسبة للبيت الحاكم ولا يعني ذلك استقرار الوضع العام.

الدواوين والكتاب:

يذكر ابنُ خلدون أنَّ الخلفاء الراشدين لم يتخذوا نظام الحجابة؛ لأنَّ مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم محظور بالشريعة كما قال، إلا أنَّ محاولة اغتيال معاوية وعمرو رضي الله عنهما على يد الخوارج اضطرَّت بني أميَّة إلى تعيين حُجَّاب لترتيب الاستقبالات، مع ما مَال إليه بنو أمية من استحداث تقاليد ملكية [٣٠]، لكنهم لم ينشئوا منصبَ الوزير، لو أنَّ الرأي العام يُطبِّق لقب الوزير على بعض من يلازمون الخليفة وقد يأتي ذلك من الرواة أيضاً [٣١]، وعلى سبيل المثال كان روح بن زنباع بمثابة الوزير لدى عبد الملك كما قال الذهبي.

ولم يسند الخلفاء حجابتهم إلى عناصر عربيَّة، بل أسندوها إلى الوالي [٣٢]ولكن الحجابة لم يكن لها على العموم كبير شأن في هذا العصر، فصاحبها يتولى بالدرجة الأولى أمور التشريفات.

واتخذ الولاة الكبار هم أيضاً حجاباً، ومن تعليمات زياد والي العراق لحاجبه عجلان أن لا يحجب عنه المنادي للصلاة، وطارق الليل، ورسول صاحب الثغر، أي المسؤول عن التخوم المجاورة لبيزنطة، والطباخ إذا أعدَّ الطعام[٣٣].

---

(٣٠) العقد الفريد ٥/ ١٩٣.

(٣١) مقدمة ابن خلدون ص٢٠٦.

(٣٢) المسعودي ٣/ ٢٨٢.

(٣٣) الطبري ٧/ ١٩٨-١٩٩، ابن عبد ربه ٥/ ١٠٤، ١٩٩، ١٩٤، ١٧٩، ١٧٦، ١٦٨، ١٥٩، ١٢٩

والإدارة المركزيَّة بالرغم من اتساع رقعة الفتوح، ظلَّت بسيطة بعيدة عن التعقيد الذي عرفته عند العباسيين أو الفاطميين، وهي على العموم تتكون من أجهزة على رأسها:

١ ـ صاحب الشرطة، ٢ ـ صاحب الحرس وهو خاص بالحرس الخليفي، ٣ ـ صاحب الخراج، ٤ ـ صاحب ديوان الرسائل، ٥ ـ صاحب ديوان البريد، ٦ ـ صاحب ديوان الخاتم، ٧ ـ أمين بيت المال، ٨ ـ صاحب ديوان الجند. وفي عهد عمر وهشام جمع مع ديوان الخراج. وفي عهد يزيد بن عبد الملك أشرف عليهما وعلى ديوان الرسائل مسؤول واحد، وأكبر تجميع للمسؤوليات تمَّ في عهد يزيد الناقص الذي أسندَ الخراجَ والجندَ والحرسَ والخاتمَ الصغير إلى مسؤولٍ واحدٍ، ويلحق بهؤلاء قاضٍ رئيسي بالعاصمة يكون مُستشاراً للخليفة أيضاً.

والمسؤوليَّات المذكورة يَتَقاسمها على العموم الموالي وعناصر من اليمن أو الشام لكن صاحب ا لشرطة لابدَّ أن يكون عَربياً، وهذا على الأقل حسبما يتبين من اللوائح التي يُقدِّمها بعض المؤرخين أو الذين سجَّلوا هذه اللوائح[٣٤].

وواضح أنَّ إسناد عدد من المسؤوليات غير العسكرية للموالي لم يكن مَبدئياً بقصد تحقيق فكرة المساواة البشريَّة أو الإسلاميَّة، ولكن لأنَّ بعض المسؤوليات التي تُسند للموالي تتطلب كتماناً للأسرار والسهر على التنفيذ الحرفيِّ لتعليمات الخليفة، وثقة الخلفاء كانت ضعيفة في العناصر الحضريَّة خاصَّة. أما مسؤولية الأمن فإنَّ زعماء العرب في جملتهم لم يكونوا ليقبلوا إسنادها في هذه المرحلة إلى غير العرب.

وكان على رأس ديوان الرسائل ـ أو الإنشاء ـ كاتبٌ يُفَوِّض إليه الخليفة عملية ضبط وتوزيع الخطابات والمراسلات الخليفية وتجميع المراسلات الخارجيَّة، والخليفة هو الذي يعطي صيغة الردود الموجزة على مُراسلات ـ أو قصص ـ السكان، وهو الذي يوقع هذه القصص، ويتوفر صاحب الديوان على غرفةٍ لحفظ الوثائق تُدعى: بيت القراطيس [٣٥]ويتم حَزْمُ القراطيس بدل تركها مَنشورة.

---

(٣٤) الكامل للمبرد ١/ ١٧٦.

(٣٥) ابن عبد ربه.

واستحدث ديوان الخاتم لختم الرسائل الخليفيَّة كيفما كان موضوعها، وكان لهذا الديوان نواة منذ العهد النبوي الذي عَيَّن لختم الخطابات مسؤولاً هو معيقيب بن أبي فاطمة الذي تحوَّل إلى إدارة بيت المال في عهد أبي بكر وعمر، وكان إنشاءُ الديوان من عمل معاوية رضي الله عنه بعد أن اكتشفَ تزويراً مَالياً في وثيقة غير ممهورة، واعتبر من أهم الدواوين حتى أسقط في أواسط الدولة العباسيَّة كما ذكر ابن القفطي، وعندما يُعلِّق الخليفة بتوقيعه ـ أي: برده ـ على كتاب تنقل نسخة التوزيع في ديوان الخاتم، ثم يحزم الأصل بخيط ويختم بالشمع، وأخيراً يختم بخاتم صاحب الديوان، وأورد البلاذري ما يفيد أنَّ الأمويين نقلوا ديوان الخاتم عن الفُرْس.

وتداول الإشرافَ على ديوان الخاتم عَرَبٌ ومَوَالٍ. وأبرزهم جميعاً قبيصة بن ذؤيب الخزاعي صاحب ديوان الخاتم لدى عبد الملك، قيل إنه من مواليد عام فتح مكة، ووصف بأنَّه كان ابن الناس عند الخليفة، وأنَّه كان ثقةً مَأموناً، وكان ممن أشاروا على عبد الملك بعدم تنحية عبد العزيز أخيه من ولاية العهد حتى حُسم الأمر بموت عبد العزيز، وعد قبيصة من الفقهاء، وكانت وفاته سنة ٨٦ أو بعدها [٣٦].

والبريد احتاج بالنظر لخطورته وارتباطه بمصالح الدولة والسكان إلى ديوان مُستقل بدأ من عهد معاوية، وأُحكم تنظيمه على عهد عبد الملك، ولتنظيم البريد لزم النظر في خريطة السكك ـ الطرق ـ وإعداد الخيل والسُّعَاة، وعلى هؤلاء أن ينقلوا بالتتابع، المراسلات التي توزَّع عبر المراكز أو تستقبلها العاصمة، وبالأخصِّ ما يهمُّ البلاط الخليفي مُباشرة، وتعتبر المسافة التي يقطعها الفرس بريداً، ومن هنا جاء استعمال البريد إدارياً، وهي تجميع الأخبار التي تروى عن سياسة الدولة والخليفة وعن تحركات الناس والإشاعات المتداولة. وسكَّة البريد ليست بالضرورة سكَّة القوافل؛ لأنه يبحث عن أقربِ الطرق وأكثرها أمناً وحيث يمكن تخصيص موقع للساعي ليسلم ما أودع لديه للساعي الذي يَليه.

---

(٣٦) قلقشندي صبح ١/ ٩٣، الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٩٩.

وممن أضيف إليهم أمر البريد، قبيصة بن ذؤيب، صاحب ديوان الخاتم الذي سبق ذكره، وكان يقرأُ المراسلات الواردة على البلاط ثم يقدم مُوجزها إلى عبد الملك، وهذا الخليفة هو أول من بدأ الخطابات بعبارة قل هو الله أحد، بعد البسملة[٣٧].

وتكتسي المراسلات الخليفية طابع الوضوح والصراحة، بل تتميَّز بشيء من القَسْوة والعُنف تجاه الذين يَتَجاوزون ما حدَّ لهم، وهي على أي حال تعكس الكثير من طبائع وتصرفات من وجِّهت إليهم وردود فعل الخليفة تجاه أصحابها، وهكذا الشأن في خطاب من معاوية إلى نجله يزيد يُعَنِّفه على سُكْرِه ومُوبقاته، وخطاب عبد الملك إلى الحجَّاج يَحْتقره ويُوبِّخُه على إهانته للصحابي الكبير أنس بن مالك، أما يزيد يخاطب أهل المدينة بقوله: (...وايم الله لئن وضعتُكم تحت قدميَّ لأطأنكم وطأة أُقِلُّ بها عدَدَكم، وأترككم بها أحاديث تُنسخ منها أخباركم كأخبارِ عادٍ وثمود).

وردَّ الحجَّاج على خطاب عبد الملك بآخر كله تذلُّل وطَمَعٌ في العفو وإقالة العَثْرة [٣٨].

وتُرَدِّد كتبُ تاريخ الأدب العربي أنَّ أول من أدخل الصنعة في الترسل كان عبد الحميد ابن يحيى كاتب آخر خلفاء بني أمية، غير أنَّ القلقشندي[٣٩] يُصحِّح هذا الخطأ الشائع بقوله: (...ولم يزل الأمرُ في المكاتبات جارياً على سنن السلف إلى أن وَلِيَ الوليدُ بن عبد الملك فجوَّد القراطيس وجلَّل الخطوط وفخَّم المكاتبات... وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك، إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد، فإنَّهما جَرَيا في ذلك على طريقة السلف). وتفخيم المكاتبات معناه التأنق فيها شكلاً ومضموناً.

---

(٣٧) راجع ما يتعلق بديوان الخاتم عند: الاستيعاب لابن عبد البر ٣/ ٣٧٧، ابن طباطبا (الفخري) تاريخ الدول الإسلامية، ص١٠٧، مقدمة ابن خلدون ص٢٣٠-٢٣١، ابن حجر في الإصابة ٣/ ٢٦٦، قلقشندي، صبح ١٤،٣٦٧، بلاذري ص٣٣٥-٣٣٦.

(٣٨) قلقشندي، ٦/ ٣٨٧و٤٧٨.

(٣٩) م ص ٣٦١.

أما عبد الحميد فلم تدخل الصنعةُ أسلوبَه فحسب، بل إنَّ المراسلات التي كتبها باسم مروان تعدُّ نموذجاً للإسهاب، وقد استغرقَ كتابه إلى أحد الولاة باسم مروان ما يزيد قليلاً عن سبع وثلاثين صفحة [٤٠] وهذه الرسالة بالذات كان يمكن أن تصلح مَنشوراً سرياً إلى سائر الولاة يوجههم في دقَّة وضبط إلى سائر ما تستقيم به مَهَامُّهم سياسياً وعسكرياً.

ولإفراط عبد الحميد في تطويل المكاتبات الخليفية قيل عنه: إنه كتب لخليفة مرةً كتاباً يعادل وزنه حِمَلَ جَمَلٍ [٤١]، وقال عنه ابن عبد ربُّه: (أول من فتَّق أكمامَ البلاغةِ وسَهَّل طُرُقَها وفكَّ رقاب الشعر، وكان عبد الحميد كاتباً ليزيد بن عبد الملك قبل أن يكتب لمروان الجهدي [٤٢].

وحسب ابن النديم فقد كانت الكتابة على الورق الخرساني المعمول من الكتاب وربما استخدم هذا الورق على يد تقنيين من الصين أما في عهد بني أمية أو قبلهم[٤٣] وعلى كل، فقد كتب المصريون على ورق البردي قبل زمن موغل في القدم، وعرف العرب رِقَّ الغزال في وقت مُبكِّر.

تعريب الدواوين:

إذا كانت لغة الإدارة قد بقيت عربيَّة داخل جزيرة العرب منذ العهد النبوي فإنَّ الفارسيَّة بقيت لغةُ التعامل بالعراق وسائر الامبراطورية الفارسيَّة القديمة، كما كانت الإغريقية بالنسبة للمناطق البيزنطيَّة القديمة، خصوصاً الشام، أما مصر فكانت لغة الإدارة بها القبطيَّة.

وليس في المصادر المتداولة ما يدلُّ على أنَّ القواعد الشعبية العربية أو المثقفين العرب طالبوا بتعريف الإدارة بشكل جماعي، فالروايات كلها تنسب المبادرات إلى أعلى مستويات الدولة، وهكذا فإنَّ الشؤون الماليَّة وقضايا الخراج ظلَّت مسؤوليتها الحقيقيَّة وحساباتها مُرتبطة بنظر

---

(٤٠) قلقشندي ١٠/ ١٩٥-٢٧٣.

(٤١) صبح ٦/ ٣٩١.

(٤٢) العِقْد الفريد ٤/ ٢١٩، وانظر أسماء رؤساء دواوين الرسائل الآخرين، وكذا غيرهم من الكتاب في نفس الصفحة والتي قبلها، وفي تاريخ الطبري ٧/ ١٩٩،١٩٨ وفهرس ابن النديم ص ١٨٣.

(٤٣) ابن النديم ص٣٧.

الموظَّفين غير العرب. وبدأت الحاجة إلى تعريب الدواوين المركزية بالعاصمة عندما بدأ المسؤول عنها يتباطأ في أداء مُهمَّته أيام عبد الملك الذي كان يتوفَّر على روح قوميَّة عميقة ويشعر بأنَّ الضرورة السياسيَّة والدينيَّة تتطلب من الجهاز الحاكم أن يَكتسب ثقةً جديدة في مُقَوِّمات المجتمع العربي والإسلامي، وكان سرجون بن منصور الأخير أن يُنَفِّذ بعض تعليماته فتهاونَ إدلالاً عليه، فلما استشارَ عبد الملك صاحب ديوان الرسائل سليمان بن سعد، التزمَ بتعريبِ دواوين الشام. وصادف أنَّ روميا من الكتَّاب لم يجدْ ماءً للمداد فبالَ في الدواة كما يروي البلاذري، فزادت هذه الصورة من إهانة المسؤولية، رغبة الخليفة في التعجيل بعملية التعريب التي تمَّت في أقل من سنة خلال ٨١ للهجرة، وحزَّ ذلك في نفوس الموظفين الروم وعلى رأسهم سرجون، وتحول ديوان الخراج إلى رئيسه الجديد سليمان بن سعد، الذي كوفئ بخراج منطقة الأردن لسنة، وهو يعادل مائة وثمانين ألف دينار.

وأهابت هذه العملية الناجحة بوالي العراق ووالي مصر إلى تعريب دواوين كل من القُطرين مُباشرة، وهكذا تولى صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم ، وأصله من سجستان ـ تتقاسمها حالياً إيران وأفغانستان ـ عملية تعريب دواوين العراق، ونشأ في وسط عربي بعد أن سبي أبوه خلال الفتوح، وكان يتقن الفارسية وكان رئيسه زادان بن فروخ رئيس ديوان الخراج، وقد حاول نجل زادان أن يتحدى صالحاً في تعريب بعض المصطلحات فأتى صالح بها فوراً، وتمت عملية التعريب في العراق بنجاح، وحاول زادان أن يوقف صالحاً في الطريق، برشوة ضخمة، فواصل مهمَّته حتى النهاية وكان ردُّ فعل زادان عنيفاً وذا دلالة عميقة حيث خاطب مساعده القديم بقوله: (قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصلَ الفارسيَّة) ولم يقع تراجع عن عملية التعريب في العصر العباسي بعد أن هيمن الفُرْس على مَقاليد الإدارة، بل إنَّ الفرس انضموا باعتزاز ومقدرة إلى خدمة اللغة العربية والمعرفة الإسلامية، حتى بزوا في ذلك الكثير من العرب.

وحسب ابن عبد ربه فإنَّ نقل الدواوين بالعراق من الفارسية على العربية تم على يد قحذم جد الوليد بن هشام القحذمي. وفي خراسان تأخر تعريب الدواوين إلى ١٢٤هـ في ولاية يوسف ابن عمر على يد إسحاق النهشلي (من كتَّاب الديوان).

أما دواوين مصر القبطيَّة فعربت على يد واليها عبد الله بن عبد الملك بن مروان، ويظهر أن هذا الإجراء تم فيما بين ٨٦و٨٧هـ، وكان الرئيس القبطي على الأموال والخراج انتناش، فصرفه الوالي وعوَّضه بابن يربوع الفزاري من أهل حمص.

ولا ريب أنَّ تعريب الدواوين فتح المجال لمؤهلات عربيَّة جديدة، ووضع حداً للاستعلاء الذي كان يطبع أحياناً سلوك الموظفين غير العرب، كما أنَّه ساعد على تكوين ثقافي جديد لدى الكتَّاب، فأصبح عليهم أن يطلعوا على أمور في الاقتصاد والجغرافيا والحساب وغيرها من المعارف، كما أنَّ اهتمامات الدارسين توجَّهت إلى دراسة اللغة العربية وتدوينها وإصلاح اللحن وإغناء الكتَّاب بمزيد من المصطلحات والعبارات، أي: بدأ يتكون هناك نواة للأدب العربي بمعناه الواسع [٤٤].

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(٤٤) البلاذري، فتوح البلدان ص٤٢١،٣٣٥،٢٧١، والعِقْد الفريد ٤/ ٢٢٤، مقدمة ابن خلدون ص٢١٢، المقريزي خطط ١/ ١٧٥، ابن تغري ٢١٠، ٢٣٨، وانظر ما كتبه فليب حتى تاريخ سوريا ص٨٣، ودراسة للدكتور اليوزبكي، آداب الرافدين، شوال ١٣٩٦، أكتوبر١٩٧٦ الموصل العراق.